بين يدى الكتــاب

لما حج السيوطى شرب من ماء زمزم ليصل فى الفقه إلى رتبة الشيخ « سراج الدين البلقينى » وفى الحديث إلى رتبة « الحافظ بن حجر » ! .

ويقول السّيوطى :

« لو شئت أن أكتب فى كل مسألة مصنفا بأقوالها وأدلتها النقلية والقياسية ومداركها ونقوضها وأجوبتها لقدرت على ذلك من فضل الله » .

ولقد كان السيوطى – بحق – شاهدا على عصره : عصر الموسوعات والجاميع ، ولو لم يقدم لنا عصره إلا مؤلفاته – التى أحصيت فى أحد الفهارس فكانت ٧٢٥ مؤلفا – لكفى !! .

(٧٢٥ مؤلفا)فى عصر كانت بدايته محنة بغداد وسقوط الخلافة على يد المغول وإحراق الكتب وإغراقهـا ، وعلى القــرب من نهايته كانت نهاية الأندلس ، ويلتقى الهاربون والفارون من محاكم التفتيش بالأندلس مع الهاربين والفارين من وجه المغول ببغداد !! حيث تتلقاهم القاهرة !! التى كانت ماتزال تحمل الراية ، فتستعيد بهم المجد الزائل والتراث الذى كاد يندثر أمام تلك الحملات الشرسة على الحضارة الإسلامية فى المشرق والمغرب .

نحن إذن مع علم من أعلام النهضة الأدبية والتاريخية والعلمية فى أحد مؤلفاته : « نزهة الجلساء فى أشعار النساء » ترجم فيه لأربعين شاعرة من شواعر العرب « المولّدات » وعرض لهن نماذج جيدة خالدة من أشعارهن مع ذكر طائفة مستملحة من أخبارهن ، إلى جانب « نوادر بعض الجوارى » .

وكأنما أراد السيوطى أن يجمع لنا فى كتابه ما بقى للمرأة من « عظمة الشاعرية » مما خلدته الأيام ، ولم تستطع محوه الأعوام .

وإذا كان هناك من يقول : « إن شعر النساء الجيد لاتجتمع منه إلا صفحات » فهأنذا أقدم تلك الصفحات التى جمعها السيوطى فأحسن الجمع واختار فوفق فى الاختيار .

وكأنما أراد السيوطى إلى جانب « نزهة الجلساء » أن يفتح أعيننا على لون من الحياة فى المشرق العربى قبل أن تسقط بغداد فى يد المغول ، وعلى لون من الحياة فى المغرب العربى قبل أن تسقط الأندلس ويخرج المسلمون منها بعدما حكموها ما يقرب من ثمانية قرون !! .

إن الشعر مرآة تنعكس على صفحتها الحياة ، والحياة عبر ودروس ، والسعيد من وعظ بغيره !! .

ليس بإنسان ولا عالم من لايعى التاريخ فى صدره
ومن درى أخبار من قبله أضاف أعماراً إلى عمره

نعم لقد جمع السيوطى فأحسن الجمع ، واختار فأجاد الاختيار ، اختار نماذج الشواعر من نساء بغداد ، ومن نساء المغرب واستمد « مادته » من :

١ - كتاب تاريخ بغداد لابن النجار .

٢ - وكتاب المغرب فى حُلَى المغرب .

بالإضافة إلى ما ذكره من أن « ابن الطَّرَّاح »[١] ألف كتابا فى « الشواعر اللاتى يستشهد بشعرهن فى العربية » وأنه جاء فى عدة مجلدات رأى منه « السادس » وليس آخر المجلدات .

تُرى ... هل كنا نظفر بمثل هذه الباقة الشعرية الجميلة لو لم يتصدَّ « السيوطى » لجمعها واختيارها ؟! .

هل كنا نتعرف على صور من الحياة فى عصرين طار شأنهما وارتفع... ولكن واأسفاه !! كما طار وقع !!؟ .

الحق أن معايشة « السيوطى » فيما جمعه نزهة ومتعة وعبرة وعظة لمن شاء أن يعتبر !! ، وحسب السيوطى أنه قدم لنا باقة تحمل بصمات عصر ذهبى للأدب فى المشرق والمغرب تألق ثم مضى وذهب .

---

(١) ابن الطرَّاح : فخر الدين بن مظفر بن الطرّاح من رجال العصر المغولى فى العراق . يقول : الشعر الجيد عاش ستين سنة ونيفا (.... - ٦٩٤ هـ) الأعلام للزركلـــى .

لقد أحصيت التآليف السيوطية – كما قلنا – فكانت (٧٢٥مؤلفا) أخرجت منها الطباعة نيفا ومائتين ، وماتزال المكتبات عامة وخاصة تختزن منها زهاء المائتين ، وأما الباقى فهو فى حكم المفقود .

وقد نسبت إلى السيوطى مؤلفات هو منها برئ دُسَّت عليه من حساده ، وأضافها إليه بعض الناس لترويجها ... من ذلك :

١ – الفاشوش فى أحكام قراقوش .

٢ – ديوان المرج النضر ، والأرج العطر .

وهو (من نظم « سيوطى » آخر كما جاء فى دائرة المعارف الإسلامية) .

٣ – الرحمة فى الطب والحكمة .

أما كتاب « نزهة الجلساء فى أشعار النساء » فقد نسبه السيوطى لنفسه فى « فهرست النوادر » .

وعزاه إليه « حاجى خليفة » فى كشف الظنون ، « وبروكلمان » فى تاريخ الأدب العربى ، والبغدادى فى هدية العارفين .

وتشير الفهارس إلى وجود أكثر من مخطوط لهذا الكتاب إلى جانب مخطوط « المكتبة التيمورية » المسجل بدار الكتب المصرية تحت رقم : « ٨١٣ شعر » وهو الذى قمنا بتحقيقه .

١ - هناك مخطوط محفوظ بالخزانة العامة بالرباط .

٢ - وهناك مخطوط بالمكتبة الظاهرية بدمشق تحت « رقم ٤٥٨٦ » .

وإذا كان قد أتيح لهذا الكتاب أن يرى النور ، ويتم طبعه من قبل على ضوء مخطوطات أخرى فإننا نرى أنه قد ضم من الشعر المكشوف مالا يسمح بهْ عصرنا ، إلى جانب أنه مازال فى حاجة إلى تناول أبياته بما يتيح لهواة الشعر معايشتها والتحليق فى أجوائها ، وكانت هذه مهمتنا التى انفردنا بها ولم يعالجها أحد قبلنا .

أليس الشعر فناً ، والفن سمو وارتقاء وصفاء ونقاء !! .

ولقد أجمع النقاد على أنه ليس من الشعر ما سف أو هبط !! .

صحيح أن السابقين لم يهملوا فى جمع التراث وحفظه وحاشاهم أن يقصروا ، ولكن الموسوعات ماتزال تضم ألوانا شتى فيها « العفيف » وفيها « المكشوف » و « ما لا يقال » !!! ؛ مما لا يعد فنا ولا شعراً !! .

البعيد ، مُحلقين فى سماء الخيال مع شقائق الرجال وربات الحجال !! .

وحسبنا ما قمنا به مما تلمسه واضحا بين يديك والله يوفقنا دائما إلى مافيه الخير لأمتنا .....

ويأتى دورنا فى تقديم هذا التراث خاليا من الشوائب سهلا ميسرا للأجيال ينعش نفوسهم ، ويصقل مواهبهم ، وينمى هوايتهم ، ويشبع نهمهم إلى العلم والأدب .

لقد جمع كتاب « نزهة الجلساء فى أشعار النساء » أغراضا شعرية شتى ، فعندما تقلب صفحاته – على الرغم من قلتها – تجد الحب ولوعته ، والرثاء وحسرته ، والهجاء ولذعته والوصف وبهجته إلى جانب الفخر وعزته ، والاعتذار وذلته !! لكنه مازال يضم من الشعر ما يجرح الحياء ويخدش الشعور مما تعافه الفطرة السليمة !! .

ولقد وقفنا حائرين بين ما توجبه « الأمانة العلمية » وتقتضيه ، وبين ما التزمنا به فى خطنا الذين نسير عليه من أمانة الكلمة التى ننشرها وطهرها وعفتها مراقبين الله فيها .

وكان علينا أن نهمل بعض الكلمات (.....)، ونترك مكانها مليئا بنقط تدل عليها ، وأشرنا إلى ذلك فى موضعه كما تقضى بذلك الأمانة العلمية ، ومن حسن الحظ أنها جاءت فى مقطوعات لاتكاد تجاوز أصابع اليد الواحدة .

ولقد وقفنا بين يدى الأبيات نلقى الضوء عليها بما يتيح للقارئ المتعة فى نزهته ، والسعادة فى رحلته مع السيوطى ، وقمنا بتوضيح الغامض ، وتقريب

الإمـام السُّـــيوطى

(٨٤٩ - ٩١١ هـ = ١٤٤٥ - ١٥٠٥ م)

هو عبدالرحمن بن أبى بكر بن محمد بن سابق الدين الخضيرى السيوطى ، جلال الدين : إمام حافظ مؤرخ أديب .

له نحو ٧٢٥ مصنفا ، منها الكتاب الكبير ، والرسالة الصغيرة نشأ فى القاهرة يتيما « مات والده وعمره خمس سنوات » ولما بلغ أربعين سنة اعتزل الناس ، وخلا بنفسه فى روضة المقياس على النيل منزويا عن أصحابه جميعا كأنه لا يعرفهم ، فألف أكثر كتبه .

وكان الأغنياء والأمراء يزورونه ويعرضون عليه الأموال والهدايا فيردها ، وطلبه السلطان مراراً فلم يحضر إليه ، وأرسل إليه هدايا فردها ، وبقى على ذلك إلى أن مات .

وجاء فى كتاب « المنح البادية - خ » أنه كان يلقب بابن الكتب ، لأن أباه طلب من أمه أن تأتيه بكتاب ففاجأها المخاض فولدته بين الكتب .

عـــصر الســـــــيوطى :

ما بين سقوط بغداد فى أيدى المغول سنة ٦٥٦ هـ ودخول العثمانيين مصر سنة ٩٢٣ هـ عصر كامل هو العصر المغولى الذى ساد فيه « المغول » الرقعة العربية من حدود الهند شرقا إلى حدود سوريا غربا فترة تجاوز القرنين ونصف القرن بما يقرب من ستة عشر عاما .

ويشاء الله – سبحانه – أن تظل مصر بمنجاة من شرهم لتحيا فى ظل المماليك .

ويشاء القدر أيضا أن تحل بالمسلمين محنة أخرى قبيل نهاية هذا العصر ففى سنة ٨٩٧ هـ أخرج المسلمون من أسبانيا !! .

وكانت الوصمة الفاضحة إحراق المكتبات والإتيان على التراث الإسلامى ! ، وكما فعل جنكيزخان فعل الإسبان ؛ فلقد أتوا على الكتب إحراقا وإبادة ، وآخر ما كان لهم فى ذلك ما فعله الكردينال « زيمتس » آخر القرن التاسع بمكتبة غرناطة حين حرم الوجود الثقافى من نحو ثمانين ألف مجلد !! .

وتصبح القاهرة ملتقى الناس من جميع الأجناس وملجأ الأدباء والعلماء يفدون إليها من كل فج عميق ... من الشرق ومن الغرب .

وتتجلى ظواهر ثلاث أمام هذه المحنة :

● الظاهرة الأولى ذلك الوعى التاريخى الذى شغل أصحابه بتدوين ما كادت الأحداث تذهب به !! يحمل رايته :

« ابن خلكان » فى وفيات الأعيان . (٦٨١ هـ) .

و « ابن أبى أصيبعة » فى طبقات الأطباء . (٦٦٨ هـ) .

و « صلاح الدين الصفدى » فى الوافى بالوفيات . (٧٦٤ هـ) .

و « أبو الفدا » فى المختصر فى أخبار البشر . (٧٣٢ هـ) .

و « الذهبى » فى تاريخ الإسلام . (٧٤٨ هـ) .

و « ابن شاكر الكتبى » فى فوات الوفيات . (٧٥٤ هـ) .

و « ابن حجر العسقلانى » فى الدرر الكامنة . (٨٥٢ هـ) .

و « المقريزى » فى الخطط . (٨٤٥ هـ) .

● أما الظاهرة الثانية فتتجلى فى ذلك الوعى الذى يتصل بالتاريخ وأعنى به النقد الأدبى ، وحمل رايته .

« ابن الطقطقى » فى كتابه « الفخرى » . (٧٠٢ هـ) .

« ابن خلدون » فى مقدمته . (٨٠٨ هـ) .

● أما الظاهرة الثالثة فتتجلى فى لهفة المؤلفين وتنافسهم على الجمع الموسوعى حتى أصبح هذا « العصر المغولى » يسمى بحق « عصر الموسوعات وعصر المجاميع » .

وكما خافوا على التاريخ خافوا على اللغة فأكثروا من المعاجم ، ولاعجب فقد أحس علماء هذا العصر – بين عشية وضحاها – انطواء صفحات ، وذهاب تاريخ وامحاء معالم ، ويحمل لواء هذه النهضة اللغوية :

ابن منظور صاحب لسان العرب . (٧١١ هـ) .

والنويرى صاحب نهاية الأرب . (٧٣٢ هـ) .

وابن فضل الله العمرى صاحب مسالك الأبصار (٧٤٨ هـ) .

والفيروز آبادى صاحب القاموس . (٨١٧ هـ)

والقلقشندى صاحب صبح الأعش . (٨٢١ هـ)

وفى ظل هذا العصر نشأ جلال الدين السيوطى وعاش ومات (٨٤٩ هـ – ٩١١ هـ) .. عاش فى القرن التاسع الهجرى وأدرك أوائل القرن العاشر .

عاش ليكون شاهدا على عصره عصر الموسوعات والمجاميع ، ولو لم يقدم لنا عصر إلا مؤلفات السيوطى لكفاه فخرا على مر العصور والدهور ، ولا عجب فقد كان كما قال النقاد : دار نشر وحده .

السيوطى شاعراً :

لقد كان أديبا مطّلعا نلمس فى أسلوبه حساسية الشاعر ... وقد كان أقرب شبها بابن حجر العسقلانى حيث وجهتهما حياتهما العلمية بعيدا عن الأدب الذى كان مزاجا لنفسيهما ولكنهما كانا يعاودانه الفينة بعد الفينة .

وتتراءى على شعرهما المسحة العلمية . وإن كان ابن حجر أرق وأغزل من السيوطى .

ونظم السيوطى فى الإخوانيات والرثاء والمدح النبوى ووصف الأحداث العامة غير أنه ذو باع طويل فى نظم العلوم والفنون والفوائد العلمية والأحكام الشرعية .

ومما تتجلى فيه قوة الإيمان والثقة بالله تعالى وحده قوله :

أيها السائل قوما مالهم فى الخير مذهب
اترك الناس جميعا وإلى ربك فارغب

ويقول فى رجاء عفو الله وابتغاء رحمته :

لِمَ لاتُرَجِّى العفوَ من ربنا وكيف لاتطمعُ فى حِلْمه؟
فى الصحيحين أتى أنه بعبده أرحمُ من أُمِّه

وله ديوان شعر . وقد ذكره حاجى خليفة .

النســـــاء والشـــــعر !! :

يوم أن طلعت علينا « عائشة التيمورية » بديوانها الذى أسمته « حلية الطراز » رحنا نقلب صفحاته وإذا به ١٩٣٦ بيتا منها ٥٥٤ فى باب الغزل ، والباقى فى أغراض أخرى .

وراح أحد النقاد يتساءل :

هل يحق للمرأة أن تقول شعرا فى الغزل ؟!! .

وإذا كان لها ذلك ففيمن تتغزل ؟ أتتغزل فى امرأة مثلها ؟ أم تتغزل فى رجل ؟ .

ثم راح ذلك الكاتب يقول :

« الواقع أننا إذا نظرنا إلى ماوصل إلينا من آثار شاعرات العرب لا نجد لهن شيئا فى الغزل ؛ فمما لاشك فيه أن عائشة انفردت دون الشاعرات العربيات بما نظمته فى هذا الباب » .

ولا نملك الآن بعد أن عثرنا على مخطوط السيوطى :

« نزهة الجلساء فى أشعار النساء » إلا أن نقول لهذا الكاتب : تعال إلى النزهة لترى فيمن تتغزل

النساء ؟! وماذا يقلن ؟ .

أليس ذلك لونا جديداً يعرضه السيوطى ؟!! .

ويقول الأستاذ العقاد فى هذه المناسبة :

- إن الاستعداد للشعر نادر !! .
- وإنه بين النساء أندر !! .

فالمرأة قد تحسن كتابة القصص ، وقد تحسن التمثيل ، وقد تحسن الرقص الفنى من ضروب الفنون الجميلة ، ولكنها لا تحسن الشعر ، ولَمَّا يشتمل تاريخ الدنيا كله بعد على شاعرة عظيمة ، لأن الأنوثة – من حيث هى أنوثة – ليست معبرة عن عواطفها ، ولا هى غلابة تستولى على الشخصية الأخرى التى تقابلها ، بل هى أدنى إلى كتمان العاطفة وإخفائها ، وأدنى إلى تسليم وجودها لمن يستولى عليه من زوج أو حبيب ، ومتى فقدت « الشخصية » صدق التعبير ، وصدق الرغبة فى التوسع والامتداد ، واشتمال الكائنات كلها ، فالذى يبقى لها من عظمة الشاعرية قليل !! .

ونحن نقول له : وهذا هو الذى بقى لها من عظمة الشاعرية يتراءى لنا فى نزهة الجلساء !!

نبوغ المرأة فى الرثاء !!

ثم يقول : ولا ينفى هذا أن الأنثى قد تعبر عن الحزن ؛ لأن الحزن لايناقض استعداد الشخصية

للتسليم ، والاستناد إلى غيرها ، ولهذا كانت الشاعرة الكبرى التى نبغت فى العربية باكية راثية وهى « الخنساء » .

ونقول لأستاذنا :

لقد جمعت نزهة الجلساء ألوانا وفنونا شعرية ففيها المدح ، وفيها الهجاء ، وفيها الوصف ، وفيها الرثاء ، وفيها الاعتذار ، وفيها الغزل ، وفيها مايمثل الشعر الغنائى بصفة عامة ، فى المشرق والمغرب من المحدثات دون المتقدمات ويقول أستاذنا :

لم يكن الشواعر المعروفات من الجوارى والعقائل فى الدولتين العباسية أو الأندلسية إلا مقلذات مرددات لا تجتمع من شعرهن الجيد صفحات .

وقد تعبر الأنثى عن الغزل ، وتبدع فيه كما أبدعت « سافو » أشعر الشواعر الغزلات ، ولكنها لم تكن معبرة عن طبيعة الأنثى كما يعلم القراء !! .

ونقول له :

وهذه هى الصفحات التى اجتمعت من شعرهن الجيد يقدمها لنا الإمام السيوطى لتكون :

« نزهة الجلساء فى أشعار النساء » .

وحسبهن أنهن عايشن التجربة فرحن يعبرن عنها فى صدق وصفاء .

* * *

منهـــج التحقيـــق

يتضح من العرض السابق أننا اعتمدنا على المخطوط الذى وجدناه « بالمكتبة التيمورية برقم ٨١٣ شعر » بدار الكتب المصرية .

وهو يقع فى ٤٩ صفحة كتبت بخط نسخى جميل حديث ويظهر أن الكاتب كان يُمْلى عليه من الأصل فأخذ يكتب كما سمع لا كما يرى . ومن هنا وقع التحريف والتصحيف إلى جانب الاختلاف فى طريقة كتابة بعض الكلمات . وعدم رعاية علامات الترقيم . أو إحسان العرض للمادة المكتوبة .

ولقد أشار السيوطى إلى بعض المراجع التى أخذ منها واعتمد عليها . فرجعنا إلى ماتيسر منها . واستعنا فى توثيق النصوص بالمراجع الآتية :

١ – كتاب المرأة العربية فى جاهليتها وإسلامها لعبدالله عفيفى .

٢ – أعلام النساء فى عالمى العرب والإسلام لعمر رضا كحالة .

٣ – البيان والتبيين للجاحظ .

٤ – زهر الآدب للحصرى .

٥ – تاريخ بغداد للخطيب البغدادى .

وقمنا بضبط الأبيات ، وشرح ما غمض من الكلمات والعبارات والتعليق عليها بما يتيح المتعة والنزهة فى رياض الشعر !! ، وقد راعينا علامات الترقيم والرسم الإملائى الحديث ، وأفردنا كل شاعرة عن غيرها من الشواعر رعاية للجانب الفنى .

ولقد تركنا مكان الكلمات أو العبارات التى تجرح المشاعر نقطا تحفظ لها مكانها فى إطار المقطوعة أو البيت رعاية للخط الذى نسير عليه ونرعى الله فيه !! دون افتئات على المخطوطة وبهذا نكون قد يسرنا المخطوطة التيمورية للاطلاع والمتعة كما أراد مؤلفها فجاءت بحق : « نزهة الجلساء فى أشعار النساء » عرضا وإخراجا وتأليفا وتبويبا ، وضبطا وتعليقا .

والله أعلم بالصواب .

عبداللطيف عاشـور

obeikandl.com

هذا كتاب

نزهة الجلساء في أشعار النساء

تأليف العلامة جلال الدين أبو

الفضل عبد الرحمن بن أبي بكر

السيوطي الشافعي المتوفى

بمصر سنة ٩١١

احدى عشر بعد

التسعمائة

هجرية

١

الصفحة الأولى من المخطوطة

obeikan.com

اذا لبيتها قلت

ليس شديدا ان تحب ولا يحبك من تحبه

فتقول هي

ويصد عنك بوجهه وتقول انت فلا تغبه

والله اعلم بالصواب واليه المرجع

والمآب وصلى الله على

سيدنا محمد واله

وصحبه وسلم

الصفحة الأخيرة من المخطوطة

obeikan.com